المرأة في رأس الجبل

حكمة العالم
مستعيرة المنزل

قال الراوي : —

وكنت ممتطياً بغلاً من بغال الدير . وبغال الأديرة معينة شديدة قوية اعتادت سلوك الوعور الجبلية . وكان الطريق المطروق ما مهّدته حوافر الدواب فقط ، ولا يسع بغلين يسيران معاً فيه . وكأنه سُلّم مختلفة الدرجات ارتفاعاً واتساعاً وانحداراً إلى جانب هاوٍ آخر، أو كأنه خطٌّ لولبي متعرج لا ترى بدايتهُ بعد ان تبتعد عنها ولا نهايته قبل أن تصل اليها . وفي بعض الأحيان كنت أرى في ذلك المنحدر الجبلي بعض مسالك طبيعية كأنها فروع للطريق حتى كنت أخاف الضلال فيها . على أني تركت للبغل حق الارشاد فيها لأنه ألف المسير في ذلك الطريق الوعر ، فأطلقت له الحبل على الغارب . وقلت « إني في قيادتك يا مرشدي » . وكنت في أول المرحلة أخاف أن تزلّ أقدام البغل ، فيتهوّر بي متدحرجين في تلك المنحدرات إلى بطن الوادي العميق . ولكني ما لبثت أن اطمأنت إذ رأيت البغل لا ينقل حافراً إلاّ وقد أقرّ الحافر الآخر في موطن أمين . ووالله لو كنت أسير ماشياً في ذلك الوعر المتغير المصاعد لزلّت قدماي كل خطوة بعد أخرى ، وما أمنت الوقوع إلى أسفل والترضض ، وربما قُتلت ، وقد لا يدري بجيفتي أحد سوى الضواري والكواسر . ولكن ذلك البغل كان يعرف كيف يضع قدمه فلا يزلّ .

وكنت أنظر الى المقام الذي أقصد إليه فأراه تارةً على مقربة ، وافتقده تارةً أخرى فاذا هو غائب عن بصري . وأحياناً كنت أظنني قد قاربت الوصول اليه فإذا بي أعد الدقائق بالعشرات وما زلت غير مدركه .

وكان رئيس الدير قد أنبأني أن مكاري الدير عائد من معتزل المتنسك ، فإذا التقيت به ورغبتُ اليه أن يصطحبني ، فما عليّ إلا أن أبلغه أمرهُ بذلك فيترك بغله ويعود البغل وحده ، وهو يسايرني الى المعتزل .

بعد نحو ساعة ونصف سمعتُ نباح كلاب يشعرني بأنها خطرة . فعلمت أني قربت الى

مستعمرة المتنسك، ولكني لما أرَ له شكلاً بعد. وكنت كلما تصاعدت اشتدَّ النباح حتى خفت أن تنقض عليَّ تلك الكلاب الضارية فتمزقني شرَّ ممزَّق. وأخيراً: —

وأخيراً أقبلت على جدار طويل مرتفع غير مستقيم ورأيت ثلاثة كلاب تطل كأنها أسود وقد هاجها منظري، واشتدَّ نباحها. وكادت تثب من الجدار من طول قامتين أو أكثر. وإذ بشخص جبَّار المظهر مشمِّر الذراعين قد أطلَّ وهو ينتهر الكلاب. فعثمتُ ان صمتتْ إلاَّ لبعض نبحات متقطعة. ثم رأيت بواباً في طرف الجدار الجنوبي قد انفتحت وخرج منها المكاري الذي قلت أن رئيس الدير قد ذكره لي. ثم أوصيت على الأثر. وكان الطريق قد عرض، فتجاوز بغلهُ بغلي. وصلت الى البوَّابة. وهي عريضة شاهقة مصنوعة من قضبان من حديد متشابكة عمودياً وأفقياً. ثم ظهر من ورائها الرجل العملاق. وكنت أتوقع أن يعبس في لما سمعت عن نفوره من الناس، فإذا ببشاشته الطبيعية تبشرني بحسن القبول. وتفرَّس بي وقال: —

أفلك تجهل قانون المملكة الذي لا يُنقض.

فقلت: لا. بل علمت من سيِّد الدير: وهو أنه لا يدخل الى هذا الملكوت العلوي بشر. وإنما زوَّدني السيد بتوصية قد يمكن أن تعطِّل القانون برهة.

ودفعتُ اليه وصية السيدُ من بين قضبان الحديد. وكان الرئيس قد قرأها عليَّ قبلاً، وهي: « زائر كريم أوجو أن تستضيفوهُ برهة ».

قرأها ثم نظر فيَّ متفرِّساً وقال: ما هو الزائر الكريم؟

فقلت بنفسي: « أي الحيوانات أنا حتى يسألني عن نفسي بحرف « ما » لا بحرف « مَن »». وأجبتُ: إني من الانس لا من الجنّ كما ترى.

قال: لم أعرف من بني آدم إنساناً سوى بضعة أفراد عبروا في فضاء التاريخ.

فقلت: ماذا بنو آدم إذن.

قال: هم من أهل الجحيم.

قلت في الفور، لقد شذذت أنا عن بني آدم.

— إذن من أي سلالة أنت.

فحضرني المنطق السديد في الحال وقلت: إني من سلالة الكلاب لا من سلالة الثعالب

فقال: استدعي أحد كلابي لكي أرى هل يتعرَّفك.

فوجف قلبي فيَّ وقلت لنفسي: إن هذا الناسك المجنون سينتقم مني بكلابه. وأجبت: اذا كنت لا تعرفني فتكون من بنات آوى لا من أسرة الكلاب الصادقة

ثم نادى . أبجر . أبجر . أبجر . وفي الحال كان الكلب أبجر بين يديه هائجاً يزمجر كالأسد، فربت على كتفيه قائلاً له : هل ترى بين هذا الحيوان وبينك صلة القربى. فسكت الكلب وجعل يوعوض بذيله ويلحس بكلام صاحبه . وقال لي « مدّ يدك إليه. لا تخف ان كانت بينكما قرابة

فزعت وقلت بنفسي : « ان سحق أبجر اليسرى تبقَ اليمنى . فلا أكن جباناً . وأجبته : لا أخاف إذا لم تكن أنت من الآدميين يا أبجر . ومددت اليسرى وهو لا يزال يربت على كتف أبجر . فجعل أبجر يلحسها . فردَّت لي روحي التي كنت أظنها ضائعة في عالم الفناء . فقال لا أظن أبجر يخطىء في تعرُّف بني نوعه الأنباء . تفضل ادخل ، مرحباً بك .

وردَّ مزلاج البوابة وفتحها قائلاً : لا تترجل عن هذا المخلوق الخدوم . دعه يدخل معك . فإن له عندي كرامة الضيف

فدخلتُ بغلي . ثمَّ أوصد البوابة ومشى أمامي إلى أمام الاسطبل حيث ترجلت وأدخل البغل إليه . ثمَّ أمسك بيدي يقودني ويقول : إن هذه البوابة لا يدخل منها إلاَّ الحيوانات الطاهرة القلب . وأنت أول حيوان أجنبي دخل إليها منذ نشأة هذا الملكوت، بشفاعة سيد الدير الذي له كرامة عندي، لأن هذه البقعة من الجبل ملك الدير . وقد تفضَّل الكاهن الوزع بأن سمح لي أن أستعمرها إلى أن أفارق جحيم الأرض، فتبقى للدير معمورة جزيلة الغلة

فقلت : نعمَّا ذلك السيد التقي الكريم . ونعمَّا هذا المستعمر الفضيل .

وعشيت على مهل أجيل نظري في تلك المستعمرة الفسيحة الوارفة الظلال وقد سحرني مناظرها فلم أعد أنطق ببنت شفة ، وهو بقي صامتاً لا ينبس بكلمة كأنَّهُ حيوان ناطق قليل الكلام . لا يتكلم إلاَّ عجباً على سؤال أو خطاب . كذا ظننت . وكان يسايرني حيثما اتجهت من غير أن يوجِّه وجهتي إلى ناحية

بقعة ، تحت قنة الجبل المرتفعة كبرج عظيم ، يكاد يتعذر الارتقاء إليها لشدة انحدارها، والبقعة تنحدر انحداراً في زاوية مع الأفق لا تقل عن ثلاثين درجة كما أظن . وقد مُهِّدت بشكل مدرَّج تتراوح سعة الدرجة فيه بين خمسة وسبعة أمتار وتتصل بعضها عن بعض نحو متر ، وتكاد تكون مستقيمة الطول إلاَّ حيث تاقضت طبيعة الأرض استقامتها . وأما الدرجة السفلى التي تعتبر كأنها صحن الدار فرحيبة، يتراوح عرضها بين ١٥ و٢٠ متراً وطولها لا يقل عن خمسين متراً . وقد انتهى الجانب الشمالي منها بأبنية من حجارة ضخمة غير منحوتة وهي « مقصَّبة » كأنها من أبنية ما قبل التاريخ . وغربيّها ذلك الجدار العالي الذي أشرت إليه آنفاً . وقد ارتفع عن صحن الدار نحو نصف متر للوقاية من الوقوع . وأما

شرقيها جدار عالٍ ارتفع عليه سور من حديد وأسلاك شائكة وكذلك جنوبيها.

وقد بسقت في هذه الدار أشجار السرو والدفلى والسنديان وغيرها كأنها تظلها بعض التظليل. ورأيت فيها قناة يجري فيها الماء الغزير من منحدرات من ذلك المدرَّج

وارتقيت بسلالم من « جلّ الى جلّ » (والجل هو درجة عريضة من الدرج) وطفت في المدرَّجات من الواحد الى الآخر. وكان الفصل آخر الربيع أو أول الصيف. رأيت الى الجنوب مروجاً خضر وقد بسقت فيها سنابل القمح والشعير في أوائل عهدها. وهناك مرجة للحمص وأخرى للفول. ثم مرجة للبقول على اختلاف أنواعها. ثم الى الشمال بساتين مختلفة الثمار من موز وتفاح وكمثرى وتين الخ. ثم في الجلّين الاعلين كرمة من الدوالي تحسن غلتها بالقناطير.

هذا مجمل مختصر لوصف هذه المستعمرة الأنيقة المنظمة تنظيماً ساحراً: « شغل المعلم لنفسه ». ثم انحدرت من أعلى الدرجات في سلالم أخرى وحينئذٍ كان لساني منعقداً من تأثير ذلك العمل العجيب في نفسي. فلما انتهيت من الطواف انحلت عقدة لساني.

قلت له: إنه لعمل عظيم جداً أن يتحول هذا الوعر الموحش الى جنة تجري من تحتها الأنهار... انه لعمل شاق جداً. كم استغرق من السنين يا ترى وكم استنفد من جهد؟

فقال: الى الآن مضت عليه تسع من السنين واستنفد جهد بضعة فعلة مدة سنتين كانوا أعواني في التمهيد وبعض الغرس وبعض البناء. وبعد ذلك كان جهدي وحده في السنين السبع الأخرى الا ما ندر إذ كنت استدعي عاملاً أو عاملين لعمل ما لا أستطيعه وحدي.

قلتُ: هذا عمل جبارة. فعجيب أن يكون عمل جبار واحد.

قال: إذا ضربت القوة بالوقت كان الحاصل....

فأتممت العبارة: كان الحاصل ٣ آلاف جبّار.

والتفت اليه فاذا هو يبتسم وقال: بل ألف جبّار في عام. ولا تنسَ الجلد والصبر أيضاً

ثم تمشينا نحو الأبنية فرأيت كرسياً من الخشب. ونظرت هنا وهناك. فأدرك أني أبحث عن كرسيّ آخر. وأسرع الى المنزل الذي هو أحد الأبنية وعاد ويده كرسيّ آخر أحسن صنعاً فقال وقال: لا بدّ أنك تعبت. فتفضل اجلس. ثم جلس على الكرسي الأول وبقي لا يتكلم. وكنت انتظر أن يسألني من أنا أو عن اسمي، وماذا أقصد من زيارته. وبقينا نحو دقيقتين ساكتين. فاضطررت أن استأنف الحديث وقلت:

أتقيم وحدك هنا؟

فقال : لا . بل معي رفقاء أوداء

فقلت . لا أرى أحداً يقلل .

فقال : كيف لا . لقد استقبلك ثلاثة منهم منذ قربت . ثم استدعيت أجير لاستقبالك لدى البرّاية وتبرّقك .

فضحكت وقلت : أين الآخران ؟

فنادى : ضرغام ضرغام .

فإذا الكلب الثاني ينقضّ من « جبل » فوق الأبنية .

ثم نادى : لبؤة لبؤة . فإذا كلبة سمينة مقبلة من ناحية أخرى كالبرق الخاطف . واقتربا اليّ ينبحان نبحاً لطيفاً . وقال : « هلموا حيوا الضيف » وأشار بيده اشارات فهمتها الكلاب . فتقدموا اليّ يلحسون يدي . ثم أمرهم أن يجثموا بعيداً . ففعلوا (استعملت ضمير العاقلين هنا لأنه هو اعتبرهم عقلاء) .

فقلت : أين الرفقاء الثلاثة . فأين هم البقية ؟

فقال : سأعرفهم بك بعد أن ترتاح . انهم في المراح الآن يعتلفون .

قلت : هل تعنيت الستين التسع معهم ؟

— معهم وحدهم . فهم خير الأصدقاء الذين عرفت

— ألم تملّ هذا المعشر الأبكم ؟

— إنه خيرٌ من المعشر الناطق . ألم تملّ أنت معشرك الثرثار ؟

— بعد كم سنة تملّ المعشر الواحد ؟

— أملّ معشراً فأجد آخر

— بعد أيام أو أسابيع أو أشهر . وفي التغيير تفريج للكروب

قال : وما هذا الكروب ؟

قلت : من تغيير الأصدقاء

فقال : كيف يتغيرون

قلت : أرى الصديق اليوم صادقاً فلا ألبث أن أكتشف أنه كاذب . أرى الصديق اليوم مخلصاً فلا ألبث أن أراه خائناً ...

قال : كفى . خبرت كل هذا . أما أصدقائي هنا فكنت أظنهم كاذبين فإذا بهم يصدقون في ركضهم ونباحهم . وكنت أخاف أن يكونوا خونة . فإذا بهم أمناء في زجرتهم . لهذا لا أملّ معشرتهم .

قلت : أغبطك وأحسدك على هذه الجنة الفيحاء التي لا يتطرّق إليها الكذب والخداع والخيانة . ليتك تقبلني عشيراً لك هنا فكنت تُرى ...

فقاطعني قائلاً : لو كنت من فصيلة أصدقائي هؤلاء لرحبت بصداقتك ..

قلت : لعلك لو خبرتني ...

فقال مقاطعاً : خبرت ألوفاً غيرك من سواري الآدميين نفسي ما خبرت ومن جرّبت.

قلت : إذن أنت تعتزل هنا تحايداً للأعداء .

فقال : لم أكن عدوّ الأحد وإنما كان الناس أعداء لصدقي وأمانتي. على أني ست في ملكوت تكم القدر : ثم ولدت ثانية في ملكوت السلام والخير . لم أشأ أن أقضي الحياة كلها في جحيم ولا أختبر بعدها ماذا يكون من نعيم . فرغبت أن أنشىء نعيمي هنا وأكمل بقية الحياة فيه

قلت : إذاً ، أنت هارب من ملكوت الإنسان

قال : بل إن ملكوت الإنسان نبذني، لأنه لا يطيق وجود غريب عنه فيه. تطهّر مني صفوة من كثير شروره .

ورفع نظره الى السماء ثم قال : أظن الساعة الحادية عشرة والنصف الآن فكشفت ساعتي . فإذا هي كما قال تقريباً . فقلت . عجيب أن يصدق ظنك في الميقات إذ لم أرك تكشف ساعة

فقال . عندي ساعة الطبيعة . أزاول استقتاءها كل برهة بعد أخرى . فتصدقني الخبر لأنها ليست كساعتك التي فيما أنت تعتمد عليها تتعطل أحياناً فتكذب عليك . الشمس والقمر والنجوم لا تكذب ولا تتعطل . أظنك بعد قليل تشعر بجوع . فاسمح لي أن أعدّ طعامنا البسيط .

وسبقني الى المنزل وتجيب أن أتبعه لكي لا أرى ماذا يعد من الطعام وكيف يعدّه . ولكني خشيت أن يحسب هذا فضولاً فقلت أتمشى لكي أرى مناظر الطبيعة من هذا الملكوت الآخر

فشيعت لدى السور الحجري القائم فوق الجدار العالي فإذا بي أرى الوعر منحدراً أي انحدار . وحاولت أن أتبين الطريق الذي جئت فيه فلم أرَ له إلا آثاراً قليلة بين أشجار السنديان وغيرها . ثم أرَ في ذلك الوعر قرية ولا مزرعة سوى الدير الذي رأيته في بقعة أخرى بعيدة بعض القرى . فقلت في نفسي : كيف يعيش هذا الرجل في هذه العزلة وحده ؟ لا ريب أنه شاذ من البشر . رأيت في سفح الجبل تحت مروجاً خضر وقرى كبيرة وصغيرة تاج للعمران الذي اصطنعه الإنسان اصطناعاً . لو كنت شاعراً لأوحت لي تلك المناظر البديعة قصيدة تُرى يشعر المتأخرين والمتقدمين

(يتبع العدد القادم نقلاً عن هنري الاقلام . والتفاق للصدق)